المحاضرة الخامسة : العلوم الدخيلة ودورها في تأسيس الفلسفة الإسلامية

ما معنى العلوم الدخيلة؟

تطورت العلوم في العصر العباسي الأول وتفرعت إلى فروع كثيرة ترجع إلى أربعة: الطب والفلسفة والنجوم والرياضيات. وكان المشتغلون في نقلها أكثرهم من غير المسلمين، ثم اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الثاني، وذكرنا من نبغ فيها، وزاد اشتغالهم بها في هذا العصر، ونبغ فيها علماء لا يشق لهم غبار.

الخلفاء العباسيون ونقل العلوم في العصر العباسي:

أ-أبو العباس السفاح:

ولم يعتنِ أول الخلفاء العباسيين السفاح بشيء من العلم لقصر مدة حكمه، ثم أفضت الخلافة إلى أخيه المنصور (سنة 136 - 158هـ) وكان شديداً حازماً كثرت في أيامه الفتوق فاضطر إلى حروب كثيرة، وقد طالت مدة حكمه لكنه قضى معظمها في تثبيت دعائم دولته وبناء مدينته (بغداد).

ب- هارون الرشيد :

ولما تولى الخلافة هارون الرشيد (170 - 193هـ) كانت الأفكار قد نضجت والأذهان قد زادت تنبهاً إلى علوم الأقدمين بما كان يتقاطر إلى بغداد من الأطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود، وكانوا أهل تمدن وعلم كما رأيت وكانوا يتعلّمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم والمسلمون يتهيّبون من ذلك لما سبق إلى أذهانهم من مخالفته للدين، وأصبحوا إذا فتحوا بلداً ووجدوا فيه كتباً لا يأمرون بإحراقها أو إعدامها بل يأمرون بحملها إلى عاصمتهم والاحتفاظ بها لنقلها إلى لسانهم كما اتفق للرشيد في أثناء حربه في أنقرة وعمودية وغيرهما من بلاد الروم فإنه عثر هناك على كتب كثيرة حملها إلى بغداد وأمر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها.

ج-المأمون :

وحين أفضت الخلافة إلى المأمون (198 - 218هـ) تغير وجه المسألة لأنه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل إلى القياس العقلي. وقد تعلم وتفقه وطالع ما نقل إلى عهده من كتب القدماء فازداد رغبة في القياس والرجوع إلى أحكام العقل فتمسك بمذهب الاعتزال وقرب إليه أشياخه، وتأييداً لصحة الجدل أمر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية إلى العربية واطلع هو عليها فقويت حجته وازداد تمسكاً بالاعتزال. ثم جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات أرسطو في الفلسفة وغيرها.

فلم ينقض عصر الصحابة حتى أخذ المسلمون يفترقون في المذاهب، ولم يدخل القرن الثاني حتى تعددت الفرق وتفرعت وفي جملتها المعتزلة. وكثر في بغداد الورّاقون وباعة الكتب وتعددت مجالس الأدب والمناظرة وأصبح همّ الناس البحث والمطالعة وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون إلى عدة من خلفائه حتى نقلت أهم كتب القدماء إلى العربية.

تشجيع الخلفاء والأمراء على العلم في العصر العباسي:

فلا غرو إذا احتفى الخلفاء والأمراء بأهل العلم وأحسنوا إليهم وهم أنفسهم كانوا من طلبة العلم ومريديه وإذا كان الملك أو الأمير عالماً زهى في أيامه العلم وسَعِد خَدَمَته. ومن شروط الخلافة في الإسلام أن يكون الخليفة عالماً بالأمور الشرعية ولذلك كان الخلفاء في الغالب عالمين بها يعقدون المجالس للنظر فيها ويقربون الفقهاء والمحدثين وتطرقوا من ذلك إلى الرغبة في النحو واللغة والتاريخ لارتباط تلك العلوم بعضها ببعض.

وما من أمير ولا خليفة محب للعلم إلا اجتمع العلماء حوله وألّفوا له الكتب في ما يحبه من فروع العلم وهو يجزيهم عليها. فألّف محمد بن إسحاق الراوية الشهير كتاب المغازي للمنصور ،وهو في الحيرة ،وألّف ابن بكار كتاب الأخبار المعروف بالموفقيات للموفق بالله، وألف الرازي كتابه المنصوري باسم المنصور بن إسحاق، ولما تولى عضد الدولة بن بويه دار السلام قرّب إليه أهل العلم فقصدوه من كل بلد وصنّفوا له كتاب الإيضاح في النحو وكتاب الحجة في القراءات وكتاب الملكي في الطب والتاجي في تاريخ الديلم وغيرها، وجملة القول: إن التمدن الإسلامي كان حافلاً بأهل العلم من قصور الخلفاء إلى المساجد ومنازل الأمراء والعامة إلى مسارح الغناء. وكانوا يعقدون المجالس للمناظرة في العلوم على اختلافها وفي الآداب على تنوع وجهاتها وفي الشعر وغيره. وكانوا يفرضون العلم على أولادهم وإخوانهم ومماليكهم وجواريهم.

دور العلوم الدخيلة في تأسيس الفلسفة الإسلامية

لما نضج التمدن الإسلامي وانتشرت العلوم الدخيلة في بلاد الإسلام عني المسلمون في درسها ونبغ منهم جماعة فاقوا أصحابها وأدخلوا فيها آراء جديدة فتنوعت وارتقت على ما اقتضاه الإسلام والآداب الإسلامية وما مازجها من علوم الأمم الأخرى فأصبحت على شكل خاص بالتمدن الإسلامي. فلما نهض أهل أوربا لاسترجاع علوم اليونان أخذوا معظمها عن اللغة العربية وفيها الصبغة الإسلامية، فلنبحث في ما أثّره التمدن الإسلامي في علوم التمدن القديم.

إسهامات العلماء المسلمين في تطوير الفلسفة:

وقد تجلت إسهامات علماء المسلمين الواضحة في علم الفلسفة وتطويرها في تفنيد ما في كتب ومؤلفات اليونان من معلومات، وتصحيح ما فيها من أخطاء، والربط بين ما جاء في أطرافها من معارف متناثرة وشذرات متباعدة، وإضافة شروح وافية لها، ثم إضافة الجديد من المعلومات

التي توصل إليها علماء المسلمين ولم يعرفها غيرهم من السابقين، فكان أن تعددت جوانب التفكير الفلسفي في الإسلام، وكان من أهمها: علم الكلام، والتصوف، والفلسفة الإسلامية الخالصة، وهذه نبذة مختصرة من كل منها.

1-علم الكلام:

يعد هذا العلم باكورة من بواكير العقلية الإسلامية، وهو كما يعرفه ابن خلدون: "هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد". وهذا العلم يعتبر خالصا للمسلمين؛ على الأقل في نشأته، فقد نشأ من أجل الدفاع عن العقائد الدينية وتفسيرها أو تأويلها تأويلاً عقليًّا عندما ظهر الضلال والزندقة، ومن خلال هذا العلم ظهرت المذاهب الفلسفية الكبرى، وظهر عمل المسلمين الباهر في تفسير الكون واكتشاف القوانين الطبيعية، وتوصلهم إلى مفهوم للوجود والحركة والعلة، يخالف مفهوم اليونان ويسبقون به مفكري أوربا المحدثين وفلاسفتهم. ولعل اهتمام المتكلمين في منهجهم بالنظر والعقل هو ما حدا ببعض المستشرقين أن يعتبروا علم الكلام مناط ابتكار في التفكير الفلسفي الإسلامي، ودليلاً على أصالةٍ فكرية لدى المسلمين، وفي ذلك يقول المستشرق الفرنسي رينان: "أما الحركة الفلسفية الحقيقية في الإسلام فينبغي أن تلتمس في مذاهب المتكلمين" .

2-التصوف:

يعد التصوف ميدانا من ميادين التفكير الفلسفي الإسلامي؛ لأنه وإن كان في جوهره تجربة روحية يعانيها الصوفي، فإن الفكر يمتزج بالواقع، والعلم يمتزج بالعمل في هذه التجربة، وهو بذلك ليس فلسفة خالصة تهتم بالبحث العقلي النظري في طبيعة الوجود بقصد الوصول إلى نظرية ميتافيزيقية متكاملة وخالية من التناقض، ولكنه فلسفة خاصة في الحياة تمتزج فيها العاطفة بالفكر، والعقل بالقلب، تهدف إلى إدراك الوجود الحق, ومن هنا كان في التصوف آراء ومذاهب ونظريات تعتبر ثمرة لتكامل الطاقات الإنسانية الثلاث: العقل والوجدان والسلوك.وينبغي أن نشير هنا إلى أن التصوف من حيث هو استبطان منظم للتجربة الدينية -أيا كانت- ولنتائج هذه التجربة في نفس الرجل الذي يمارسها، فهو بهذا الوصف ظاهرة إنسانية ذات طابع روحي لا تحده حدود زمانية أو مكانية، وليس وقفا على أمة من الأمم أو جنس من الأجناس البشرية.

3-الفلسفة الخالصة:

وهي فلسفة الذين أعجبوا بالفلسفة اليونانية وعكفوا على دراستها وشرحها وتحليلها وألفوا على نمطها، من أمثال: الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن باجة وابن طفيل, هذه الجماعة من الفلاسفة المسلمين الذين كانوا منارة استضاءت بها الدنيا والحضارة الغربية.

ومن أشهر الفلاسفة في العصر العباسي:

من أشهر فلاسفة العصر العباسي الفارابي الذي اشتهر بإتقان العلوم الحكمية. وكانت اهتماماته الرئيسية في علوم ما وراء الطبيعة، فلسفة السياسة، المنطق، الموسيقى، الأخلاق، نظرية المعرفة ، و ا بن سينا وهو عالم وطبيب وفيلسوف مسلم، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما، و الكندي الذي برع في الفلك والفلسفة والكيمياء والفيزياء والطب والرياضيات والموسيقى وعلم النفس والمنطق، وا بن رشد وهو فيلسوف، وطبيب، وفقيه، وأبو حامد محمد الغزّالي وهو أحد أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري .

من أشهر الكتب في هذه الفترة في الفلسفة:

كتب الفارابي في الفلسفة هي كتاب ‘‘الجمع بين رأي الحكيمين’’ ، و كتاب ‘‘الخرافة الكبير’’ و كتاب ‘‘الواحد والوحدة’’ و كتاب ‘‘الجوهر’’ ، و كتاب ‘‘الزمان’’ ، و كتاب ‘‘المكان’’ و كتاب ‘‘الخلاء’’ و كتاب ‘‘العقل والمعقول’’ ، و كتاب ‘‘التوطئة في المنطق’’ ، و كتاب ‘‘منطق الفارابي’’. و من كتب ابن سينا الإشارات والتنبيهات، و الشفاء ومن مؤلفات الكندي الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد. و من مؤلفات أبي حامد محمد الغزّالي الطوسي النيسابوري الصوفي الشافعي الأشعري هي ’’ مقاصد الفلاسفة‘‘ ‘‘تهافت الفلاسفة‘‘و غيرهما من الكتب الأخري.

المسلمون والفلسفة:

لم تكن لدي المسلمين فكرة رشيدة عن الفلسفة و علومها قبل حركة الترجمة من اللغة اليونانية إلى العربية ، و بالتحديد بدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية في العصر العباسي و بسبب هذه الترجمة عرف المسلمون الفلسفة و خاصة يراسل الخليفة المأمون ملوك الروم أي البيزنطيين للحصول على الكتب و المخطوطات و لا سيما كتب الفلسفة اليونانية لأن القسطنطنية عاصمة الروم تعرف بمدينة الحكمة.

وقد أوضح الفارابي (أن هذا العلم – و يعني به الفلسفة- على ما يقال : إنه كان في القديم في الكلدانيين و هم أهل العراق ، ثم صار إلى أهل مصر ، ثم انتقل إلى اليونانين). و يقول شارل فرنرا إن الفلسفة اليونانية إنما نشأت من تماس اليونان بالشرق ، فيظهر من هذا أن الفلسفة نشأت في بلاد الشرق ثم وصلت إلى البلاد الغربية و خاصة اليونان و تطورت في اليونان ثم انتقلت من اليونان إلى اللغة العربية في عصر الدولة العباسية الإسلامية عندما بدأت حركة الترجمة والتعريب في هذه الفترة.

الفلسفة الإسلامية :

وهو مصطلح عام يمكن تعريفه واستخدامه بطرق مختلفة، فيمكن للمصطلح أن يستخدم على انه الفلسفة المستمدة من نصوص الإسلام بحيث يقدم تصور الإسلام ورؤيته حول الكون والخلق والحياة والخالق. لكن الاستخدام الأخر الأعم يشمل جميع الأعمال والتصورات الفلسفية التي تمت وبحثت في إطار الثقافة العربية الإسلامية والحضارة الإسلامية تحت ظل الإمبراطورية الإسلامية من دون أي ضرورة لأن يكون مرتبطا بحقائق دينية أو نصوص شرعية إسلامية. في بعض الأحيان تقدم الفلسفة الإسلامية على أنها كل عمل فلسفي قام به فلاسفة مسلمون. إذا اعتبرنا تعريف الفلسفة على أنها محاولة بناء تصور ورؤية شمولية للكون والحياة، فإن بديات هذه الأعمال في الحضارة الإسلامية بدأت كتيار فكري في البدايات المبكرة للدولة الإسلامية بدأ بعلم الكلام ، ووصل الذروة في القرن التاسع عندما أصبح المسلمون على إطلاع بالفلسفة اليونانية القديمة والذي أدى إلى نشوء رعيل من الفلاسفة المسلمين الذين كانوا يختلفون عن علماء الكلام.

وقد تطورت الفلسفة الإسلامية من مرحلة دراسة المسائل التي لا تثبت إلا بالنقل والتعبّد إلى مرحلة دراسة المسائل التي ينحصر إثباتها بالأدلة العقلية ولكن النقطة المشتركة عبر هذا الامتداد التاريخي كان معرفة الله وإثبات الخالق. بلغ هذا التيار الفلسفي منعطفا بالغ الأهمية على يد ابن رشد من خلال تمسكه بمبدأ الفكر الحر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة. أول من برز من فلاسفة العرب كان الكندي الذي يلقب بالمعلم الأول عند العرب، من ثم كان الفارابي الذي تبنى الكثير من الفكر الأرسطي من العقل الفعال وقدم العالم ومفهوم اللغة الطبيعية. وكان الغزالي أول من أقام صلحا بين المنطق والعلوم الإسلامية حين بين أن أساسيب المنطق اليوناني يمكن ان تكون محايدة ومفصولة عن التصورات الميتافيزيقية اليونانية. توسع الغزالي في شرح المنطق واستخدمه في علم أصول الفقه، لكنه بالمقابل شن هجوما عنيفا على الرؤى الفلسفية للفلاسفة المسلمين المشائين في كتاب تهافت الفلاسفة، رد عليه لاحقا ابن رشد في كتاب تهافت التهافت.

للاطلاع والاستزادة ينظر:

1- عبد اللطيف محمد:دراسات في الفلسفة الإسلامية
2- عبد القادر فيدوح:بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية
3- محمد جبر: منزلة الكندي في الفلسفة العربية
4- محمد كمال جعفر:في الفلسفة الإسلامية دراسة ونصوص
5- عبد اللطيف العبد: دراسات في الفلسفة الإسلامية
6- يحيي هويدي :دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية